النهار
2012-01-12

"التسونامي العربي" لأنطوان بصبوص:

الأسباب والتداعيات الداخلية والإقليمية

بقلم رويدة سام منسى-واشنطن هل "التسونامي العربي" هي التسمية التي قد تجمع عليها أكثرية المتابعين والمهتمين بحركة الإحتجاجات التي إجتاحت أكثر من دولة عربية خلال العام 2011 المنصرم؟

التسميات تعددت من "الربيع العربي"، وهي الأكثر رواجا، إلى الإنتفاضات أو الثورات أو الإحتجاجات. إلا أن الطابع غير المتوقع لهذا التحرك الشعبي ولما انتجه من سقوط مدوٍ لأنظمة توتاليتارية، إضافة إلى حتميته التاريخية والعجز عن مواجهته وتوقيف إرتداداته، تبقي تسمية "التسونامي العربي" الأكثر قربا مما جرى ويجري على الساحة العربية.

"التسونامي العربي" هو عنوان الكتاب الصادر مؤخرا لأنطوان بصبوص عن دار "فايار" في باريس في 372 صفحة. أنطوان بصبوص كاتب وباحث لبناني، أسس مركز دراسات مرصد الدول العربية في باريس وأداره لأكثر من عشرين عاما.

بفصول ثلاثة رئيسة يتناول الكتاب حركات الإحتجاج الشعبية في تونس ومصر وليبيا والبحرين وسوريا ويطرح تساؤلات حول أسبابها وتداعياتها الداخلية والإقليمية . وإذا كانت بالنسبة للكاتب أسباب إندلاع وإنتشار هذا المد الثوري بالنسبة للكاتب مفهومة كنتيجة منطقية لتركيبة الأنظمة المنهارة، فإنه يرى تداعياتها تشرع الأبواب لإحتمالات قد يصعب إستشرافها. هل ما جرى ويجري يدل على تحولات عميقة في بلدان الربيع العربي تؤسس لقيام دول حديثة وديموقراطية؟ أم هو فوضى إقليمية عارمة نتيجتها الحتمية نشوء بؤر تشتعل بحروب أهلية؟ ما هو الدور المستقبلي لحركات الإسلام السياسي وما هو تأثير وصولها الى السلطة على وضع الأقليات المسيحية في المنطقة؟

في الفصل الأول يعرض أنطوان بصبوص لأسباب غضب الشعوب العربية مبينا سمات مشتركة بين مختلف الأنظمة السياسية التي إجتاحها التسونامي والتي جعلت من استمرارها أمرا مستحيلا. إضافة إلى الفشل الإقتصادي وغلو المنظومات الأمنية والعسكرية وإنعدام المشاركة السياسية، يبرز بصبوص ظاهرة التوريث السياسي ضمن أنظمة ثورية أو جمهورية كعامل أساس وراء الإحتقان الشعبي. فالاقتناع لدى الحكام بعدم نهاية مدة حكمهم حتى بعد وفاتهم كانت راسخة حيث عملوا على تأمين نقل السلطة من بعدهم الى الأبناء وذلك عبر اعتماد سياسة تقوم على الفساد الممنهج والتحكم الكامل بالموارد المالية والرقابة المطلقة على الإعلام والسيطرة السياسية على القضاء.

في الفصل الثاني قدم بصبوص توصيفا توثيقياً لمسار الإنتفاضات في كل من تونس ومصر وليبيا والبحرين وسوريا وشرح بدقة الأوضاع الداخلية لكل من البلدان الستة مقدما في كثير من الأحيان معلومات غير متداولة. ويطرح بصبوص مجموعة من التساؤلات حول مستقبل هذه الثورات:

في مصر، ماذا سيفعل الإخوان المسلمون بعد دخولهم إلى السلطة؟ أية صفقة ستتم مع الجيش الذي حكم مصر منذ حوالى ستين عاما؟

في سوريا، ماذا بعد سقوط نظام الأسد؟ هل تتجه الإنتفاضة نحو حرب أهلية بين السنة والعلويين؟ هل سيصل الإسلاميون إلى الحكم؟ وإذا استلموا السلطة ما هو مصير المسيحيين في هذا البلد؟

في ليبيا، ما هي قدرة الإنتقاضة على بناء دولة في ظل تنازع القبائل؟

وفي هذا الفصل لا يمكن ان نغفل الجانب المتعلق بالسعودية وذلك لوفرة ودقة المعلومات الجريئة عن أوضاع المملكة.

الفصل الثالث يتناول تأثير موجات التسونامي العربي على الدول الإقليمية الثلاث غير العربية، إيران وتركيا وإسرائيل.

"التسونامي العربي" بالطبع لا يحمل كل الأجوبة عن المستقبل السياسي القريب أو المتوسط للبلدان التي إجتاحها، إنما يعرض لوقائع كثيرة تساعد على فهم ما جرى وإستشراف المستقبل جراء معرفة دامغة لبنية وهيكلة الأنظمة السياسة المنهارة وللتركيبة الإجتماعية والدينية للدول المعنية وللقوى الفاعلة فيها.

أنطوان بصبوص قدم قراءة موضوعية للظواهر الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي أدت إلى إنفجار الإحتقان الشعبي وإسقاط الإستبداد حيث لم يعد قادرا على الوقوف في وجهه. بالرغم من أوجه الشبه الكاملة في اعتماد وسائل القمع، لم تنجح الأنظمة في منع الثورات وإيقاف مدها فسقطت بشكل فاجأ العالم كما فاجأ المحتجين أنفسهم.

إضافة الى تفنيد العوامل التي انتجت التسونامي العربي، شرح بصبوص مسار الإنتفاضات في الدول المعنية كافة من خلال معايير بحثية موضوعية دون الوقوع في فخ قراءة شؤون المشرق من منظار المشرقي الذي يعيش في الغرب أو فخ القراءة من خلال مسلمات الغرب تجاه المنطقة بل افاد من منهجية البحث الغربية. وفي الوقت الذي تحدث فيه عن قواسم مشتركة للتجارب الست، لحظ خصوصية كل منها من خلال ارتباطها العضوي بتركيبة المجتمع الذي انبثقت منه وبالعوامل الجيوسياسية للبلد ولموقعه في خريطة العلاقات السياسة والإقتصادية الدولية.

أنطوان بصبوص إستبعد أيضا نظرية المؤامرة بل أسقطها ليدخل في تفسير إيدولوجي استراتيجي مبينا أن الأنظمة التي تهاوت لم تكن في السلطة بدعم من الغرب كما يزعم كثيرون في العالم العربي إنما لها جذور عسكرية أو إثنية أو طائفية أو قبلية راسخة في مجتمعاتها.

كما أبرز بصبوص أن الضربة التي قضت على الأنظمة المنهارة أو التي هي قيد الإنهيار لم تأتها من المد الإسلامي الذي لطالما إستعملته كفزاعة لتأمين استمرارها، إنما أتتها من حيث لم تتوقع، من مجتمع مدني لم تكن تعتبره موجودا، قاده شباب مرتبط بالعالم بفضل تكنولوجيا الإتصالات الحديثة من إنترنت وهواتف ذكية ومواقع التواصل الإجتماعية من فيسبوك وتويتر ويوتوب وغيرها.

الكاتب أفاد ايضا من علاقات شخصية ربطته بعدد من صانعي القرار والخبراء في شؤون المنطقة سمحت له بتمرير بعض المعلومات غير المتداولة كما ايضا تجدر الاشارة الى معرفة الكاتب العميقة بشؤون المغرب العربي والظاهرة بوضوخ ابان تطرقه الى اوضاع تلك المنطقة.

بعضهم اختزل اهمية الكتاب بالصفحات التي تناولت مواقف البطريرك الماروني بشارة الراعي بشأن سوريا والربيع العربي وغيرها من القضايا التي اثارها ابان زيارة قام بها لفرنسا. انما الانصاف يقضي بالقول ان كتاب انطوان بصبوص من حيث الاشكاليات التي يطرحها او المعلومات الكثيرة التي يزخر بها اهم بكثير من هذه القضية على اهميتها.

التسونامي لا يمكن توقعه. إنه كما القدر لا يرد كما أن له آثارا واسعة وجذرية ويترك دمارا كبيرا على غرار سقوط الدولة المستبدة التي بدورها تترك تراثا يصعب التخلص منه بسهولة. انما ايضا ينبغي ان لا يغيب عنا أن مشاكل العالم العربي المتجذرة لم تكمن فقط في أنظمته إنما أيضا في شعوبه التي رسخت تحت نيرها لعقود. إضافة الى مجموعة من المشاكل التاريخية في كل بلد أحسنت الأنظمة المنهارة الإفادة منها. فإذا أطاح ما سمّاه بصبوص بالتسونامي الأنظمة فهو لم يطح مسلكيات الشعوب ولا مشاكل بلدانها المتجذرة.

التسونامي الذي لا يُرَدّ عند وقوعه يخلّف بعد إنتهائه مساحات فارغة تسمح للعقل بالبناء على أسس صحيحة وسليمة. السؤال الذي يشغل بال الكثيرين ومنهم أنطوان بصبوص هل التسونامي العربي سيسمح بذلك؟

جميع الحقوق محفوظة - © جريدة النهار 2011